الينبوع

بقلم

ابراهيم المصرى

كان الشيخ « آنى » رجلا ورعا تقيا، مشهورا فى مدينة طيبة بالعلم والحكمة كما كان مشهورا فى صناعة تلوين القماش . وكان يعيش فى قرية نائية ، ويسكن بيتا متواضعا صغيرا ، ويمضى سحابة نهاره فى مطالعة الاسفار القديمة، أو الكتابة على ورق البردى ، أو مزاولة مهنته التى يحبها ، والتى كافأته بيت مرغون على تفوقه فيها بان منحته قلادة ذهبية تحمل رسم الاله آمون .

وكان اذ يمكف على عمله ، يبدأ بتنظيف قطع القماش ، ثم يغمسها فى مواد منتصة معينة ، ثم يلقى بها فى مرجل ، فتخرج القطع بعد فترة وجيزة ملونة تلوينا رائعا .

والعجيب فى أمره انه كان لا يضع فى المرجل غير لون واحد فقط . ومع ذلك فالاقمشة كانت تخرج مختلفة الالوان بفعل المواد المنتصة التى استخدمها .

والحق انه كان يهوى الحكمة بقدر ما يهوى فن تلوين القماش ، وكان يرى فى تلوين القماش رمزا لاختلاف صور الحياة وتنوع احداث الزمن . لذلك كان يعتنق فنه ، ويمعن فى اجادته ، ولا يعطى أبدا باسراره الا لطائفة مختارة من اصفيائه ومريديه .

ففى ذلك المساء الصيفى الرقيق الذى تضوعت نسماته كالعطر وانتشرت فى مدينة طيبة ذات المائة باب ، كان الشيخ آنى قد فرغ من عمله ، وترفع على حصيرته ، ومضى يقلب فى اهتمام أسفاره وكتبه ...

وانهمك فى البحث والمطالعة فترة ، ثم رفع رأسه الاشيب ، وحدق بعينيه المستديرتين الحادتين الى صفيه ومريده المفضل الشاب « اونيس » ، الذى كان يتطلع اليه ملهوفا ويلهث ..

واتاد الشيخ وتبارحت دقات قلبه ولكنه ابتسم . ابتسم ابتسامة متهللة وظافرة، ثم مال الى الشاب فجاة، وقال فى صوت واضح المخارج باتر النبرات :

ـ أنا واثق .. واثق يا بنى مما ذكرته لك ! .. الكتب القديمة التى وضعها اسلافنا لا يمكن أن تكذب . ولقد قرأتها جميعا . قرأتها بامعان . ولقد كان فى وسع غيرى ان يهتدى الى ماهتديت اليه أنا . ولكن الناس لاصبر لهم على العلم . وهم يتعجلون المعرفة ، ويؤثرون الأخذ بالرأى الشائع على البحث

عن حقيقة جديدة قلة يتفوقون بها على انفسهم ويفرضون بوساطتها سلطانهم البشري على هذه الحياة .. وانا بادئ اشعر ابلغ شعور واعمقه ان اوريريس قد رضي عني ، وان العلم قد استجاب لصبري ، وانني قد كشفت النقاب عن سر عظيم ، واصبح في مقدوري ان افرض سلطاني على حياتي ، وان اصوغ من جوهرها مادة فرح ونعيم ! .. ولكني يا ابن شيخ في السبعين ، ايهك العلم بدني ، واستبدت الايام بعضلاتي ، ولم يعد في جعبة قواي سهم واحد اصوبه الى هدفي واحقق به الكشف العظيم الذي اهتديت اليه ! .. فاليك اذن ، انت تلميذي ومريدي واحب الناس الي ، اهدي بدخيلة نفسي ، واميط النقاب عن سري ، وآمل ان تحقق حلمي يوما على يديك ! ..

فانحنى الشاب امام استاذه في احترام ، وتناول طرف ثوبه الابيض وقبله ، ثم صاح وهو يرتجف

ـ تكلم ... تكلم يا مولاي .. وثق ان ارادتي لن تنفصل ابدا عن عملك وان هذه الارادة التي اذكيتها انت بنار فكرك ، ستظل وفية لوحيك ، تتبعك وتطيعك ، وتؤمن بان الحقيقة الكبرى تصدر عنك وتتمثل فيك !

فحدق اليه الشيخ مرة ثانية ، ولمعت عيناه ، وتماوجت العضون الكثيفة في وجهه المشرق ، فلم يتمالك نفسه وطوق الشاب بذراعه وهمس في اذنه وهو يختلج

ـ يا اوزيريس الحبيب ... اصغ ... لقد اهتديت ... اهتديت الى سر السعادة .

فعبر الشاب فاه ولم يفهم ، فاستطرد الشيخ

ـ اقول اني اهتديت الى سر السعادة .. كشفت لي عنه كتب اسلافنا ... سر السعادة .. أتفهم ؟ ... السعادة الارضية التي يشيدها الجميع ويتهافت الكل عبثا عليها ... فارهف السمع يا اوزيريس واحمل من اذنك فما ظامئا ومحموما .. لقد عثرت .. عثرت على كتاب قديم .. قديم وفريد .. كتاب يقول صاحبه ويؤكد ان في مدينتنا .. في مدينتنا هذه ... في طيبة الكبيرة المقدسة .. ينبوع ماء .. ينبوعا صغيرا .. خفيا .. يكمن فوق ربوة صخرية عالية مدلهمة كالسهم ، ينبض بخوارها كوح مهدم ... هذا الينبوع يا اوزيريس يتفجر ماء قراح .. ماء سحري باركته الآلهة .. ماء لو شرب منه الانسان ولو رشفة واحدة ، لم يعرف الرغبة الجامحة ولا الشهوة العاتية ، ولا الطمع القاسي ، ولا ذل الفقر ، وخيبة الحب ، وحسرة المرض ، ولوعة الفراق ساعة الموت ! .. رشفة واحدة من ذلك الينبوع يا اوزيريس تعمر العقل حكمة ، والبدن صحة ، والقلب راحة ، والنفس ايمانا وصفاء ونشوة ! ... هذا هو الكشف العظيم الذي اهتديت اليه ... وانا لم اقص به اليك انت ، انت يا اوزيريس ، الا حبا فيك ، وايثارا لك ، وثقة في ارادتك ، ويقينا مني ولمعك بالتفوق والاستعلاء والبحث عن كل حقيقة قلة ايما وجدت ! .. فاذا كنت حقا ذلك المريد الذي وضعت فيه املي واصطفيته ايما لفكري وروحي ، فاحزم امرك يا اوزيريس منذ الساعة واذهب ... غادر قريتنا ولا تلتفت الى الوراء ... لاتفكر في اهلك الذين يحبونك ولا في

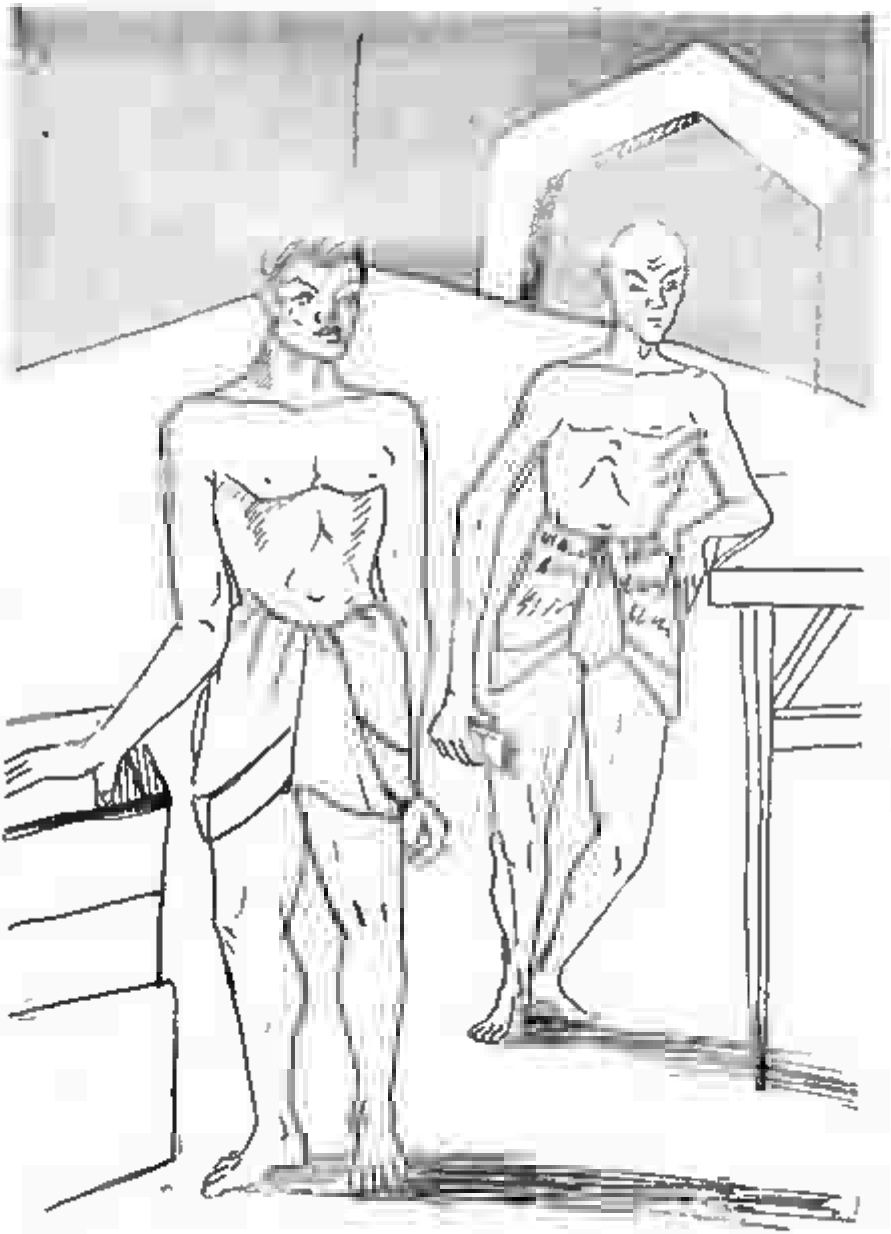

خطيئتك التي تحبها .. ضع الهدف العظيم نصب عينيك واذهب .. اضرب على الغور في احشاء المدينة واطرافها ، وابحث عن اليسوع واشرب منه ... اشرب من مائه القراح ، وعش، وتعوق، وكن سعيدا ! ..

فدخل الشاب وتولته رعدة . لبث لحظة ساهما شاردا مأخوذا ، يتفرس في أستاذه الشيخ تارة ، ويسمع النطر في كلامه أخرى ويتأمل ..

وخلبته روعة الكشف العظيم ، فتمثل الربوة العالية ، والكوخ المهدم ، واليسوع الصغير ، وتصور نفسه وقد عب في ذلك الماء السحري المقدس ، انسانا لاترعجه العرائر ، ولا تنال منه الكوارث ، ولا يقوى عليه قانون الحياة- انسانا فذا حارقا ، صافيا محلقا ، رائعا في سعادة كسعادة الأرباب ، عاستبدت به اللهفة ، واخذته الجراة ، وملكته حماسة الشباب ، فلم يتردد ، ونهض واثبا وهتف !

ـ سأجوب المدينة كلها ! .. لن يقر لي قرار حتى أتطفل في كل صاحبة، واتقد الى كل قرية ، واخرق كل درب وكل رفاق ! .. فاصحبني بركتك يا أبت ، واتل صلاتك اليوم من أجل ، اتهل الى الآلهة جميعا عساها ان تكلاني بعين عنايتها وتقويني وتنصرني !

فبسط الشيخ ذراعه على راس مريده وقال

ـ ايها الفتى « اباب » يا رمز الفطرة الصحيحة ، والخوف والتردد والشر وجميع النقائص المتاصلة في أعماق الجسد ، ابتعد عن نفسك ، وانكمش في حسرة عجزك ، واسحق تحت قدمي اوزيس ، ومت قبل أن تصيبه باي اذى ! ..

فتهلل وجه الشاب ، وعانق أستاذه في صمت . ثم تقبل منه البركة وهو يرتعش ، ثم لثم يديه واطراف ثوبه وفتح الباب وخرج ..

***

خرج وهو مبهوت . خرج وهو منجذب وثانه ... وكان يحب أهله ، ويقدس بل يعبد حظيرته الحمساء « تايا » ، ذات الرقة الشائقة ، والملاحة الغامضة ، والحفر العذب الأسر الخلاب ـ فبارعته نفسه أن يمضي أمر استاذه ، وأن يذهب أولا فيودع أهله ويودع الفتاة ـ ولكنه خاف من عواطف القربى، وارتعد فرقا من حنان الحب . أحس انه لو أبصر أهله فلا بد أن يتردد ، ولو التقى بتايا الحميلة فلا بد أن يبكي ويعدل عن الرحيل- فلم يشأ ان يضعف ويخيب أمل استاذه فيه . فلاذ مسرعا باللهفة التي كانت مستحوذة عليه وطفق يحدق .. يحدق الى حلمه الخارق فعظ ... وكان حلم السعادة يبهر عقله ، وطيف اليسوع يحتل فكره ، وجمال الصفاء الرائع المنشود يضرم في بدنه وقدة الحمى ، ويحمله على أجنحة من نار ونور ..

وابى ان يرى أحدا ، أو يخاطب أحدا ، أو يفكر في أحد .

وبدل أن يسلك طريقه اليومي ، ذلك الطريق الشرقي المؤدي الى داره ودار حظيرته ، غالب نفسه مااستطاع ، واهاب بارادته وعزمه ، وسلك الطريق الغربي المعارض المفضي الى قلب مدينة طيبة ذات المائة باب . وهناك تنكر في

رى درويش حشية أن يعرفه أهله وصحبه، ثم تزود بشيء من الخبز والجبن والفاكهة ، وحمل حصيرته على ظهره ، وانطلق يضرب في ارجاء المدينة ..

شرع يستمر ويبحث ويتغلغل ويجوب ..

شده المجهول الى جواده الذهبي الحالم ، ثم أحاله الى طائر من تلك الطيور المهاجرة التي لاتعرف في هجرتها الوطن ، احتكره الحرية ، وفتنه التشرد ، وملك عليه قلبه وحواسه تعقب السر ومطاردة الحلم ..

كان يقف تجاه الشمس الساطعة ويهتف بها قائلا : ان اوزيريس العظيم هو انت يا خالقة الحياة والسرور ويا سيدة الارباب ، فهل استطاع ان اسير كما تسيرين بدون توقف ؟ ... وهل في وسعي أن أخترق الفضاء مثلك في لحظة ؟ ... أعينيني أيتها القوة الدائمة الوجود واشفقي علي ! ... .

ومضى يتضرع الى الشمس المعبودة ويمشي .. لم يترك صاحبة الا وهبطها، ولا قرية الا وسلكها ، ورقاقا اودربا الا وارتمى فيه، ولكنه لم يعثر على اليسوع

لم يعثر على اليسوع ولم ييأس في الوقت نفسه من العثور عليه ، كان يعلم ان الجهاد يجب ان يكون على قدر الغاية ، فعاد يضرب في المدينة كأنه لم يعرفها ، وعاد يمشي بطيئا العامر واحشاءها المثقلة، معللا نفسه باستحالة الفشل بعد طول الجهاد .

وظل يبحث ويستمر ويمشي .. ظل يقاوم ويكافح ويحاطب الشمس ويستصرخ اوزيريس ..

ولكن الايام تعاقبت ، والاشهر تراادفت ، والسنين انصرمت ، وابوليس كان مايزال يمشي ...

لم يصدق درعا مصيره ، ثم يتبرم فترة بجهاده ، كان يشتغل تارة حمالا ، وتارة حطابا ، وأخرى فلاحا أجيرا أو حارسا على المداود او صوامع الغلال .

وكان يتعطل الاسابيع بطولها فلا يتململ ، بل يشد حزامه على بطنه ، ويظل متنقلا من شارع الى شارع ، ومن ضاحية الى اخرى ، هائما على وجهه ، مممما في طوافه ، يستمر مرة بعد مرات ، ولا يفتأ يستمر ويبحث ويمشي ..

وقاسى مرارة الفقر والجوع والذل ، ثم أعياه البحث وأضناه الطواف ، فزرع تحت وطأة الرمس وهو لا يدري ..

ابيض شعره، وهزل بدنه، واحدودب ظهره ، واستقطر منه حلمه الباسم عصارة القوة والشباب .

أحس ان الخط قد حانه ، وان الرمس قد أكله ، وانه قد استحال من قاص الى فريسة ، فهاله أمله الخائب ، وضياع الصنائع ، وجهاده الباطل ، وانتابته ضربة من الحسرة المخامرة أوشكت أن تبتليه بيأس من خيال ...

أيقن ان استاذه الشيخ قد مات وهو ينتظره ، فاسودت الدنيا في عينيه ، وتحبط وانهار عزمه ، وفكر مكرها في الخضوع والتسليم .

أراد أن يرى تابا حبيبته .. ان يكر راجعا الى بيته ... ان يقبع ساكنا في ظلمة حجره وان يقر هونا ويستريح ، ولكنه لم يستطع ، عز عليه ان يتقهقر، كر عليه أن ينهزم بعد أن أراق دم العمر كله في الجهاد ، فاستمسك

بكبره ، وتشبث بعزمه ، وعاد يجوب انحاء المدينة ، ويبحث ويستفسر ، حتى صح الناس منه ، واستراب بعقله ، وأوصدوا أبوابهم في وجهه ، وشرعوا يدعون انه مجذوب ومجنون .

وحتى بالفعل أن يحس . فارتعدت فرائصه ذعرا . فطوى قلبه على حلمه مقهورا ، وطأطأ الراس صاغرا ، ثم تحامل على نفسه ذات مساء ، وودع المدينة الكبيرة الغادرة ، واتجه نحو قريته ، وسلك الطريق القديم ... الطريق الشرقي .. الطريق المؤدي الى بيته وبيت تايا ...

وظل يمشي الساعات الطوال ، متوكئا على عصاه ، حاملا حسرته على ظهره ، يستحدي ربات البيوت بعض كسرات من الخبز ، ويفكر في تايا الحبيبة ، ويذكر أهله وصحبه ، ولا يدري من منهم قد بقي حيا ، ومن منهم قد تعب وتصحر ومات ..

وأباح عليه الليل وهو يمشي . فاحس انه مجهد منهوك . فأراد ان يحط رحاله تحت شجرة . ولكن الليلة كانت صافية ، والنجوم لامعة ، والنسيم عذبا رخيا . فانعشه الجو وأثمله . فاندفع واستطرد المسير .

وشيئا فشيئا ، وعلى ضوء القمر الساطع ، لاحت أمامه القرية التي نشأ فيها ، والبيوت التي عرفها ، والحقول والبساتين التي شاهدت فجر حياته . فخفق قلبه وأنعم النظر ايضا . فلمح بيته ... داره ... داره العزيزة الصغيرة الأليفة .. وبالقرب منها الدار الفسيحة الاخرى ... بيت الفتاة الشائقة الحسناء تايا ، التي كانت بالامس حظيته وأصبحت اليوم ولا ريب زوجة رجل سواه ..

وشخص الى الدار الفسيحة لحظة وعمعم . « أتراها ماتزال هنا أم انها ذهبت لتعيش في كنف زوجها ؟ ... كيف هي الآن ، وكيف هم اولادها ، أولادها الذين كان يمكن أن يكونوا اليوم اولادي انا ؟ ... »

وانهمر الدمع من عينيه ولأول مرة ، لأول مرة منذ طوفته السحيقة النائية ، تسرح واصل الى البستان الصغير الفاصل بين بيته وبيت الفتاة . ثم دنا من بيتها ، ودار حوله ، واقتحم الارض الفضاء حيث يهفهف الجناح السنوي الذي كانت تعيش فيه تايا وأمها واخواتها ، والذي كان محرما عليه وعلى أي غريب ان يدنو منه .

اقتحم تلك الرقعة من الارض الفضاء التي غابت معالمها عن ذهنه والتي لم يرها الا وهو طفل ، ثم اتجه نحو الجناح السنوي ، واشراب بعنقه الى احدى نوافذه . فالفاها مفتوحة . فتطلع اليها وملأ نفسه الأمل في ان تكون حبيبته هنا ، وان تكون مستيقظة . فيستطيع ان يلمحها قبل أن يتحول ويدخل داره .

وراد ذاك ، وبينما هو جاثم في تلك الرقعة المحرمة ، يتطلع الى النافذة المفتوحة ويلتقط انفاسه ويرتجف ، سمع صوتا بعيدا .. صوتا خفيفا .. صوتا غريبا رنينا لم يسمعه أبدا ... صوتا يرامى اليه من اقصى الارض الفضاء التي لم يعرفها ، وضاع أدبيه في عتمة تشبه الهمس او الوسوسة او الانين ... فانصت لحظة وهو يرتعش ، ثم أرهف السمع ايضا وقلبه يخفق ،

ثم تراجع بعضة مسلوب العقل طائر الليل ... اذ تأكد ان الصوت البعيد القريب هو صوت حرير ماء ...

ولم يكد يتأكد حتى اسرع وتحول عن الهاوية ثم استدار واندفع كمجنون ... ضرب في الارض العصماء ، وابتعد نحو منطلق الصوت ، وطفق يعدو في ضوء القمر الساطع ، مجتازا حقلا صغيرا ثم تخاه قدماه ، ومخترقا اشجار كثيفة لم يكن يعلم بوجودها في تلك الناحية ، ومتعقبا جهده مرمى الصوت الرتيب الخفيض الذي كان ما يفتأ يوسوس له كأنه يدعوه .

وفجأة ، وعلى ضوء القمر ، وفي هدأة الليل الزاخر ، ابصر نفسه في مكان غريب ، مكان موحش مهجور ، مكان ضيق في رواية منه ربوة ... ربوة صخرية عالية .. ربوة مندلعة كالسهم، يتهيض بجوارها كوخ مهدم ! .. فحدق ابوليس الى الربوة وجمد ... حدق اليها وصعق ... لمع البنفسج ... لمع البنفسج يهدر في قمتها وينفجر منه الماء ... فجحظت عيناه دهشة ودهولا ... وانقطر قلبه فرحا ولوعة ، وايقن وهو يرتجف ان هذه الربوة هي التي حدثه عنها استاذه، وان البنفسج، بنفسج السعادة، البنفسج الذي قضى العمر كله في البحث عنه ، كان هنا ... على مقربة منه !! في متناول يده .. بجوار بيته وبيت حبيبته تايا ... ومع ذلك فقد اختبل عقله ولم يفهم !! لم يشأ ان يفهم ... عز عليه ان يفكر ويفهم ... ثار غضبه واستنكاره، وحنقه ... وبكل ما اوتي من قوى الحسرة ، بكل ما أوتي من قوى الكمد واللوعة وارادة الثأر لعار اليأس ودل الهزيمة ، صرخ وهو يتحفر : ... امي يا اوديرس ! ... !

وارتمى على الربوة كوحش كاسر وشرع يسلقها .

وانشب أصابعه في الرمل والصخر وهو يزمجر ... فأعمى الرمل عينيه ، ومزق الصخر يديه وركبتيه وقدميه ... ولكنه صعد ... صعد وهو يلهث ... صعد وهو يحتز ... صعد وابصر الماء ... ابصر الماء السحري المقدس يتفجر هادرا من قلب البنفسج ... فمد يده ، يد الكهل الصامرة ، يد الكهل المرتعشة الدامية ، وحاول ان يمس الماء .. وفي تلك اللحظة ، في تلك اللحظة المنشودة المروعة ، وقبل ان يستشعر طراوة الماء الحي ويهم بأن يغترف منه ليشرب ، ماج الكون في عينيه ، وطوح به دوار مظلم ... فتشبث بالصخر جهده ... ولكن الدوار استغرقه وحتم على بصره ... فتصدع قبة وترنح ، ثم حارت قواه ، وانفرط الرمل تحت قدميه ... فارسل صرخة ممزقة ، وهوى من حالق ... وسقط على الارض يتخبط في دمه !

وظل يحدق الى الربوة لحظة ثم حول بصره الى الفضاء الاصم الجامد ، ثم رفت عيناه الباتستان المقهورتان، واختلج اختلاجا عنيفا وأسلم الروح .

واد ذاك ، وقع شيء عجيب ، شيء خارق ، شيء لم يكن في الحسبان أبدا ... ... خفت صوت البنفسج ، ثم اختنق هديره، ثم تحول مأؤه فجأة عن مجراه ... وطفق الماء يتسلل ويتلاعى ، ويتساكب هبوطا قصية رقيقة على جثة البطل الصريع ...